آفاق الحضارة الاسلامية، اكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
السنة الثالثة عشرة، العدد الثانی، خريف و شتاء ١٤٣١هـ.ق، صص ٥٥ ـ ٧٩

الأدب والعيون

الدكتور السيد خليل باستان*

المستخلص

الكلامُ يدورُحول العيون من وجهة نظرالقرآن الكريم والادباء الماضين منهم والحاضرين،والذين بلغ عددهم فی هذه المقالة أكثر من خمسة وأربعين شاعراً، وما ترشح منهم من معانی الجمال لاوصاف العيون العظيمة، على لسان الظرفاء من الادباء، من سعة العيون، و سوادها وبياضها ،وسهامها ونبالها وسيوفها و ... التی قدمتها الشعراء فی هذا المضمار والتی بلغت المئات، فجئنا بشواهد مختلفة حيث بلغ أكثر من مئة وخمسين بيتاً من الفنون الشعرية مع ذكر أصحابها، ثم أشرنا الى الفنون المختلفة التی صدرت عن أفواه الشعراء، والنظرة الايجابية والسلبية للعيون.

الكلمات الرئيسة: القرآن الكريم، العيون، صفاتها، الأدباء، الشعر العربی.

المقدمة

حاولنا فی هذه الدراسة العاجلة أن نقف قليلاً على موقف الفنّ الادبی و الادباء من العيون، لأن الادب فيما مضی وفيما بقی، لا محالة خائض فی وصف سحر العيون، وذاكر جمالها وخصائصها و ... الكلام هنا طويل عريض، يستحق دراسة دقيقة على مستوى اطروحة دكتوراه.

وعلى أی حال قيل مالا يُدرک كلّه لايُترک كلّه، وعلى هذا الاساس قمنا بالوقوف على الكتاب العزيزورؤيته للعيون، وما يحتوی على بيان للجمال و تحبيب أهل الايمان الى ذلک.

ومن ثم وقفنا على آراء أصحاب الذوق والفن الادبی، من شعراء وخطباء ... حتی ندرک الجمال بادق معانيه، و أصدق أوصافه و ...، فجئنا بامثلة كثيرة من الابيات الشعرية المختلفة التی اعتنت بالعين و محاسنها وابراز جمالها الحقيقی، وما ترک من أثّر فی النفوس، وماقدّمته الشعراء من قتلی للعيون، وما جری عليهم من الويلات والثبور، ومالاقوه من الحسرات والهموم، وما أصابهم من مصائب و صعاب و

* استاذ مشارک كلية الادب الفارسی واللغات الاجنبية، جامعة العلامة الطباطبائی Seyedkhalil@hotmail.com
تاريخ الوصول: ٨٩/٨/٣، تاريخ القبول: ٨٩/٨/٣٠

... والذى بذلوه فى حقّ العيون لا يساوى شيئاً، لأنّ الحور أغلى ثمناً وأنفس مالاً وثروةً، ومهورهن فى اليوم الموعود أكثر بكثير، مما يتصوّره احداً ألا وهو الايمان بالله العظيم والاقبال على العمل الصالح.

أ: القرآن الكريم والعين

للعين معانٍ مختلفة من حيث الاستعمال، وقد ذكر لها الدامغانى فى قاموسه وجوهاً خمسة {الاول: بمعنى النهر كما فى قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً (البقرة/)٦٠، الثانى: شراب أهل الجنة كما فى قوله تعالى: عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجيراً (الانسان/٦).الثالث: الحفظ والكلاءة كما فى قوله تعالى: وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنى (طه/٣٩)، أى بكلاءتى وحفظى. الرابع: النظركما فى قوله تعالى: أن اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا (هود/٣٧) أى بمنظر منّا. الخامس: الباصرة كما فى قوله تعالى: أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (البلد/٨). (الدامغانى، الحسين‌بن محمد، ١٩٧٠م: ٣٣٨ بتصرف). إنّ المعنى الخامس يخصنا فى هذا البحث، فلما أراد الله سبحانه أن يصف نساء أهل الجنة لاصحاب الايمان والعمل الصالح وأهل التقوى قال: كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عينٍ (الدخان/٥٤)، فالحور جمع حوراء بمعنى المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء، شديدةً سوادَ العين، او الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، والعِين مفردها العيناء، وهى العظيمة العينين، فالوصف يركز على العيون دون سائر الاعضاء، لما فيها من جمال يستقطب الالباب. ونراه سبحانه وتعالى تارةً اخرى يصفهنّ بقوله: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عينٌ (الصافات/٤٨)، و القاصرات جمع قاصرة، وهنّ اللاتى يقصرن أطرافهنّ على أزواجهنّ لحبهنّ اياهم، لاينظرن الى سواهم، فالتركيزهنا جاءعلى العين أيضا، حيث الواسعات العيون، النجل العيون، أو الشديدات بياض العين والشديدات سوادها، وعلى هذا الاساس بنى أبو العتاهية قوله التالى:

غرّ الوجوه محجباتٌ قاصرات الطرف حورُ

(شيخو، ١٩٩٨،ج ٢٩:٣)

فهذا التركيز يُعدّ عاملاً أساسياً للتشويق والترغيب والتحبيب الى الجنان التى عرضها السموات والارض وفيها الحور المقصورات فى الخيام.

وقالت العرب أجمل ما فى الانسان وجهه، وأجملُ ما فى الوجه العين، فمقياس الجمال هو العين النجلاء لاغير، وهذا الامر جعل الشعراء يخوضون معارك قاسية ويقدمون الضحايا و يذرفون الدموع اللآلى فى سبيل الحبّ وسحر العيون،كما سنجد ذلک بعد قليل.ولكن القرآن العظيم فى الوقت نفسه نبّه على عظم خطر النظرات السقيمة لبعض النفوس المريضة قائلاً: قُلْ

لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ* وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ ... (النور/٣٠-٣١)، حيث تعدّهذه النظرات من سهام ابليس (لعنة الله عليه)، وكذلک السنة الشريفة حرّمت النظرة الثانية كما جاء فى الخبر : ان النظرة الاولى لک والثانية عليک، واعلم ان الله سبحانه وتعالى : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (غافر/١٩)، وهو القادر على طمس العيون والقضاء عليها اذا تجاوزت حدودها، وأن العين مسؤولة أمام رب العالمين حيث يقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِکَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (الإسراء/٣٦).

الجميل يُدرک الجمال:

العينُ أداة للبصر، ملک الاعضاء، وأرقى الحواس عند البشر، حيث تصلُ الى مطلوبها حيث لا تصل الحواس الأخرى اليها، كما يقول الشريف الرضى:

سهمٌ أصاب ورامیه بذی سلم من بالعراق،لقدابعدتِ مرماک

(الشريف الرضى،١٤٠٦هـ.ق،ج٢: ١٠٧)

والمقصود من ذى سلم أرض الحجاز،فسهم العين يقطع مسافة طويلة وبعيدةحيث لا تستطيع الحواس الاخرى بالقيام بها.

والعين أجملُ قطعة فنية وصفها البارئ تعالى، وجعلها فتنةً للناس، حيث يقول: وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عينٍ (الطور/٢٠). فبالعين الساحرة يمكننا أن ندرک الجمال الساحر، كما جاء فى قول الشريف الرضى:

ياظبية البان ترعى فى خمائله ليهنک اليوم أن القلب مرعاک
الماء عندک مبذول لشاربه وليس يرويک الّا مدمعى الباکى
سهمٌ أصاب ورامیه بذی سلم مَن بالعراق، لقد أبعدتِ مرماک
وعدٌ لعينيک عندى ما وفيتِ به يا قرب ما کذبت عينىّ عيناک
حکت لحاضک ما فى الريم من ملح يوم اللقاء فکان الفضل للحاکى
کأنّ طرفک يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنک من أسماء قتلاک
أنت النعيم لقلبى والعذابُ له فما أمرّک فى قلبى و أحلاکِ

(الشريف الرضى، محمدبن‌الطاهر، ج٣: ١٠٧)

وكذلک يقول بشار بن برد:

أنا والله اشتهى سحر عينيک وأخشى مصارع العشاق

(شيخو، لويس، مصدرسابق، ج٢: ٢٠)

ومن المعلوم أن بشاراً كان أعمى، فانظر كيف سحرت العيون قلبه.

باء: الأدباء والعين

البحث عن العيون لدى الشعراء طويل وعريض، يستحق دراسة أكاديمية حتى تستوفى المطلوب وانّما جاء البحث هنا بايجاز، فمنذ أن انفجر عمود الشعر وليومنا هذا خاض الادباء فى العيون أىّ خوض، ولم يتركوا جانبا منه الّا ذكروه ووصفوه،وتفنّوا فى أدبهم بشتى الاساليب والبيان، على مرّ العصور و الازمان، فبرعوا وأبدعوا فى الجمال والحبّ لمّا تأثرت عواطفهم ومشاعرهم بالعيون، والبحث يدورُ على محاور عديدة نذكرُ منها:

١. شوق العيون

بما أنّ القلوب تشتاق الى الأحبّة حيناً بعد حين، ويزداد هذا الشوق وينقص حسب الظروف والأزمان، فان العيون كذلک تشتاق إلى أحبتها، فانظر الى براعة عمر بن أبى ربيعة حين يقول:

فعرفن الشوق فى مقلتها وحباب الشوق يُبديه النظر

(المصدر السابق، ج٢:١٨٧)

وأراد بالحباب الفقاقيع التى تعلو الماء. وكذلک قال الصنوبرى فى هذا المجال:

كم ثنايا تُسبى بنكهتها وكم عيون تُصبى بلحظتها

(المصدر السابق، ج٢:٢٢)

وأراد ب(تُصبى) اشتياق العيون.

٢. ألوان العيون

كما هو معروف أن للعيون ألواناً مختلفة، فيها آيات السحر مشهودة ومعانى الجمال مقصودة من قبل اصحاب الاذواق الأدبية، فقد تباينت أذواقهم فى وصفها، فمنها الدعجاء اى السوداء الواسعة التى وصفها القرآن العظيم بالحور العين، ثم انظر إلى قول الشاعر السلطان النبهانى الذى يرى أنّ العين الدعجاء سيف يقتل العشاق فى هذا البيت:

لقد سللت سيف جفن أدعج على همام أروع متوّج

وكذلک يرى أبونواس هذا المعنى فى هذا البيت:

قالوا: فزد ،قلت وفى ال عينين منه دعج

(ديوان ابى نواس: ٤٦)

وكذا يقول بشار:

ودعجـاء المحـاجر مـن معـدّ كـــأنّ حـــديثها ثمرُالجنـــان

(شيخو،لويس،ج٣:٢٠)

وينظر البحترى الى الجمال الذى يرافق العيون الحور بقوله:

وســـوادُالعيون لـــو لـــم يُحجّـــر بيـــاض، مـــا كـــان بـــالموموق

(الاسكندرى، احمد، ١٩٥١م، ج٣:١١٠)

ويراد ب(لم يحجّر) اى لم يحط، وبالموموق اى المحبوب. وقال الشاعر المهجـرى إيليـا أبـو ماضى فى العيون السوداء:

ليـت الـذى خلـق العيـون السـودا خلـق القلـوب الخافقـات حديـدا

ومنها العين النجلاء التى اشدُّ فتكاً من أفعى حرّة، فانّها تقتل حين ترمى، قال عمر بن أبى ربيعة:

وأقـــبلن يمشـــين الهوينـــا عشـــيةً يُقـتّلن مـن يـرمين بالحـدق النُجـل

ومنها الشهلاء، والشُهلة حمرة فى سوادها، (الثعالبى،اسماعيل، بلا:٩٥)، وقيـل سـواد الحدقـة يضرب الى الحمرة، قال السرى الرفاء:

فهـل كشُـهل العيـونِ مـن كثـب وهـــو كزُهرالنجـــوم مـــن بُعـــدِ

(شيخو، لويس، ج٣:٢٩٢)

ومنها العين الكحلاء، لم يكن سواد العين وحده يسحر أذواق الشعراء بل تجاوز الى الاجفـان السود من غير إضافة الكحل إليها، كما قال التلعفرى:

حميت شقيق الخـدّ بالمقلـة الكحـلا وثقلـت رُمـح القـدُ بالطعنـة الـنجلا

هذا من جانب، ويرى بعض الشعراء من جانب آخر، انّ العين أحياناً تتكحّل بنور الحبيبة كما يشير الى هذا المعنى عبد الجبّاربن حمديس:

ولمّـا عَشـينا مـن توقّـد نورهـا تخـذنا سـناه فـى نواظرنـا كحّـلا

(الاسكندرى، أحمد، خ ١٦٧:٣)

ويرى عمر بن أبى ربيعة ان عينه تكحلت بالقذى من ألم الفراق كما هو المشهود فى البيت التالى:

وقد كحلـت عينـى القـذى لفـراقكم وعـاد لهـا تهتانُهـا فهـى تسـجُمُ

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢:١٩٣)

ويرى ابن ابى الحديد انّه يكحل عينه بغبار نعال الحبيب كما هو فى بيته التالى:

قســماً بتــرب نعالــه فمحــاجرى أبــداً بغيــر غبــاره لا تكحــلُ

(الصالح، صالح‌على، ١٩٧٢:١٤٩)

وللعين الوان اخرى مثل الزقاء والخضراء و ... ولها أسرار ومعانٍ متفاوتة نعرض عنها صـفحاً خوف الإطالة.

٣. اشكال العيون

منها الناعسة والضاحكة والحزينة، واما الناعسة فهى التى يتميز اصحابها بالهـدوء والسـكينة كمـا يصفها ابن الرومى قائلاً:

وألقــت جُــنح مغربهــا شــعاعاً مريضــاً مثــل ألحــاظ الكعــاب

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣:١٠٢)

والمراد: من جُنح مغربها اى فى ظلام الغروب، والكعاب أى الجارية الناهدة، ويقول آخر:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبـداً أسهرت مضناک فى حفظ الهوى فـنم

والعيون الناعسة علامة للدلال و الدلع و ... . لقد جمع الشاعر سويد بن ابى كاهل بين صـفاء العين وفتورها وكحلها فقال:

صــافى اللــون وطرفــاً ســاجياً أكحــل العينــين مــا فيــه قمــع

(الخطيب التبريزى، يحيى، ١٨٧٨، ج٢:٨٧)

واما العيون الضاحكة، فقد نسبها الرب الجليل للوجوه حيث يقول: (وُجُوهٌ يَوْمَئِـذٍ مُسْـفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) (عبس/٣٩)، ويتميز أصحابها بالذكاء والطرافةوأمّا العيون الحزينة، فهى التـى تترقق الدموع فيها ويمتاز أصحابها بالحكمة وروعة الروح.

٤. تشبيهات العيون

شبّه الشعراء العيون بأفضل التشبيهات من سوادها وسعتها، بـالغزلان والمهـا والجـؤذر، وأخـرى بالنرجس وما شابه ذلک، يقول عنترة بن شداد:

وكأنّمــا نَظَــرَتْ بعينــى شــادن رشــأ مــن الغــزلان لــيس بتــوأم

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م. ج١:١٥٤)

وفاعل نَظَرَتْ عبلة، والشادن ولد الظبى، والرشأ ولد الظبى إذا قوى وركض، وليس بتوأم يعنى انّه فرد ويدلّ على سمنه وقوته. يقول الشريف الرضى فى الظباء الواسعة العيون:

هيهـات يتبعنـى الـى سُـلوانه قلـبٌ أصـاب بـه الظبـاءالعين

(الشريف الرضى، محمد،١٤٠٦ هـ.ق، ج٢:٤٧١)

وتارة يرى الحبيبة تنظر اليه بعين الشاة الوحشية حيث يقول:

ترنـــو إلـــىّ بعـــين مطفلـــة رعت اللوى ومسـاقط المُـزن

(المصدرالسابق ج٢:٤٧٩)

والمراد بعين مطفلة اى بعين شاة وحشية ذات طفل، فهى واسعة العـين كحـلاء، واللـوى مـا التوى من الرمل.

ويرى البارودى من المعاصرين ان العيون هى عيون المها كما جاء فى قوله:

محا البين ما أبقت عيـون المهـا منّـى فشبتُ ولم أقـض اللبانـة مـن سـنّى

(محمدى:١٩)

والبين الفراق، والمها البقرة الوحشية يستحسن منها العيون الواسعة، اللبانة الحاجة. وهذا معـن بن أوس يرى العين هى عين الجؤذر(ولد البقر الوحشى) فى قوله:

ســبتنى بعينـــى جـــؤذر بخميلـــة وجيـد كجيـد الـرئم، زيّنـه الـنظم

(شيخو، مصدرسابق،ج٢:٥٦)

والمراد بالخميلة الرملة تنبت الشجر، الجيـد الرقبـة، والـرئم الغـزال الابـيض اللـون. ويـرى الصنوبرى ان سعة العيون تشبه النرجس فى قوله:

أجفـــان كـــافور خفقـــن بـــاعين مـــن زعفـــران ناعمـــات اللمـــس

مغرورقـــات فـــى ترقـــرق كلّـــه ترنـــو بعـــين النـــاظر المتفـــرّس

(المصدرالسابق، ج٣:٢١٨)

ومغرورقات غارقات بالدمع، ترقرق تلألأ، المتفرّس: الذكى.

٥. قتلى العيون

بالغ الشعراء فى وصف العيون وسحرها إلى حدّ الفداء والقتل، وقيل إنّ اغزل شعر قالته العرب هو قول جرير التالى:

إنّ العيـون التـى فـى طرفهـا حـورٌ قتلننـــا ثـــم لـــم يحيـــين قتلانـــا

يصرعنَ ذا اللب حتى لا حـراك بـه وهـــنّ أضـــعف خلـــقِ الله إنســـانا

(الهاشمى، أحمد، بلاتا، ج٢:١٥٢)

ويعتقد أبونواس انّ العيون سيوف قتّالة فى هذا البيت:

أراه ســـــوف يقتلنـــــى ببــعض ســـيوف مقلتـــه

(ابونواس، الحسن‌ابن هانى، ١٩٨٠م:٤١)

ويرى ابن الفارض انّ العيون رماة سهام فى هذا البيت:

وقـد علمـوا أنّـى قتيـل لحاظهـا فـإنّ لهـا فـى كـلّ جارحـة نصـلَ

(ابن الفارض، عمربن‌أبى‌الحسن،١٩٦٢م: ١٣٦)

بل يرى أبونواس أشدّ من ذلک حيث جعل لكلّ عضو فى وجه الحبيب نوعاً من السلاح كما جاء فى البيت التالى:

فالسيف مضحكة، والقـوس حاجبيـه والسـهم عينـاه، والاهـداب أرمـاح

(ابونواس، الحسن‌ابن هانى، ١٩٨٠م :٤٨)

ويذهب عمر ابن أبى ربيعة الى عدم وجود القصاص فى قتلى العيون فى هذه الأبيات:

ولهـــا عينـــان، فـــى طرفيهـــا حَوَرٌمنهـــا وفـــى الجيـــد غيـــدْ

ولقـــد أذكـــر اذ قيـــل لهـــا ودمـــوعى فـــوق خـــدّ ى تطّـــردْ

قلـــت: مـــن أنـــتِ؟ فقالـــت:أنـــا مـــن شـــفّهُ الوجـــد وأبـــلاه الكمـــدْ

نحـــن أهـــل الخيـــف مـــن أهـــل مِنـــى مـــا لمقتـــول قتلنـــاه قـــوَدْ

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢:١٩٤)

ويراد ب(غيد) النعومة فى العنق، وشفّه الوجد أوهنه الحبّ، والكمد الحزن الشديد، والقود القصاص.

ويقرأ الشريف الرضى عدد القتلى من خلال النظر الى العيون:

كأنّ طرفک يوم الجزع يخبرنـا من ينظر فى عينيک يفهم عدد

(الشريف الرضى، محمدبن‌الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج٢:١٠٧)

ويرى ابن المعتز انّ العيون ترشد الى قتل المحبين:

يا مفـرداً فـى الحسـن والشـكل مـن دلّ عينيـک علـى قتلـى

(شيخو، لويس،١٩٩٨م ،ج٣:١٦٣)

٦. سحر العيون

يعدّ الشعراء العيون سواحراً قدمن من مدينة السحر، بابل العراق، كما جاء ذلک فى قول أبى العتاهية:

كأنّ فی فیها وفی طرفها سواحراً اقبلن من بابل

(المصدر السابق، ج٣:٣٦)

ویری أیضاً أنّ العیون الساحرة لها هیبةٌ وعظمة کما جاء فی قوله:

تقلّب ألحاظ المهابة بینهم عیون ظباء فی قلوب أسود

(المصدر السابق، ج٣:٣٢)

وهکذا یعتقد آبونواس بسحر العیون فی الجفون کما هو واضح فی البیت التالی:

بعینیه سحر ظاهر فی جفونه وفی نشره طیب کقائمة العطر

(أبو نواس، الحسن‌ابن هانی،١٩٨٠م:٦٥)

وفی هذا البیت أیضا:

قل لذی الطرف الخلوب ولذی الوجه الغضوب

(المصدر السابق:٢٤)

والمراد من الخلوب الساحر. وهذا السحر یُری فی قول کعب بن زهیر فی قصیدته البردة المشهورة:

وما سعادُ غداة البین اذ رحلوا إلّا أغنُّ غضیض الطرف مکحول

(شیخو، لویس،١٩٩٨م ،ج٢:١١)

ومن سحر العیون انّها تُسقی الخمور کما یعتقد بشاربن برد:

حوراء إنْ نظرت الیک سقتک بالعینین خمرا

(المصدرالسابق، ج٣:٢٠)

لقد أجاد وأکمل وأجمل ابن هانئ الاندلسی البیان فی سحر العیون، وجمع أطراف الکلام فی أجزائها، وألبسها ثوب الجمال، وأری أنّ أحداً من الشعراء لم یقل مقالته التی جاءت فی الأبیات التالیة:

فتکات طرفک أم سیوف أبیک وکئوس خمر، أم مراشف فیک؟

أجلاد مرهفة وفتک محاجر ؟ ما انت راحمةٌ ولا أهلوک

عیناک أم مغناک موعدُنا وفی وادی الکری ألقاک أم وادیک؟

منعوک من سنة الکری، وسروا فلو عثروا بطیف طارق ظنّوک

حسبوا التکحّل فی جفونک حلیة تالله ما بأکفهم کحّلوک

(المصدرالسابق، ج ١٨:٥)

٧. سهر العيون

من سنن الله تعالى القائمة بين الأنام المنام ليلاً، كما قال عزّ وجلّ: (وَ هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً) (الفرقان /٤٧)، ولكنّ الذى اشتغل باله بالحبيب يطير النوم من دماغه، ويظنّ انّ الليل قد طال زمانه، كما يرى امرأ القيس:

ألاايّها الليل الطويل الا انجلى بصبح وما الإصباح منک بامثل
فيالک من ليل کأنّ نجومه بأمراس کتّان الى صُمّ جندل

(الزوزنى، الحسين‌بن‌احمد، ١٩٩٤م :٥٦)

والمراد بالانجلاء الانكشاف، والأمثل الافضل، والامراس الحبال، والاصم الصلب، والجندل الصخرة، وهكذا هو الكلام لدى الشعراء المعاصرين، منهم محمود سامى البارودى الذى يقول:

نفى النومَ عن عينيه نفسٌ أبيةٌ لها بين أطراف الأسنة مطلبُ

(الهاشمى، أحمد،بلاتا، ج٢:٢٧٧)

فالذى باله مشغول بالانتصار فى الحرب تسهر عيناه ولا تغفل عن النصر. وهكذا الحبيب فهو فى حالة السهر والأرق كما يرى الكميت:

نفى عن عينک الأرق الهجوعا وهم يمترى منها الدموعا

(الصالح، صالح على، ١٩٧٢ م: ٧٨)

والمراد بالأرق السهاد، والهجوع النوم، فصاحب الشوق ومالک الهمّ سهران لا يذوق طعم النوم والراحة لحظة. وهكذا يشعرأبوالعتاهية بألم السهر قائلاً:

أرقتُ وطار عن عينى النعاسُ کلاهما ساه وساهر

(شيخو، لويس،١٩٩٨م، ج٣:٣١)

ويرى أبونواس انّ فتور العين لتدلّ على السهر فى بيته التالى:

تفتير عينيک دليل على انّک تشکو سهر البارحة

(المصدرالسابق، ج٣:٥١)

٨. الحياء والعيون

الحياء صفة حميدة لدى الجاهليين، حيث تمسّكوا بها ردحاً من الزمان، كما يقول عنترة الفوارس:

وأغضُّ طرفى ما بدت لى جارتى حتى يُوارى جارتى مأ واها

(المصدر السابق، ج١:١٦٥)

فما بالک بالاسلام الذی حثّ الرجال والنساء علی الحیاء کما جاء فی القرآن الکـریم: (قُـلْ لِلْمُؤْمِنینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبیرٌ بِما یَصْنَعُونَ*وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ ...) (النور/٣٠-٣١). والی هذا المعنی أشار الفرزدق فی قصیدته المعروفة التی مدح بها الامام زین العابدین(ع) حیث قال:

یُغضی حیاءً ویُغضی مـن مهابتـهِ فــلا یُکلّــم الاّ حــین یبتســمُ

(شیخو، مصدرسابق، ج ٢: ١٢٢)

فهنا إطباقان الاول للحیاء الخاص بالامام زین العابدین(ع) والثانی لعیـون المشـاهدین هیبـة وإجلالاً له (ع).

یقول صاحب کتاب الشعر و الشعراء: تدبرتُ الشعر فوجدته أربعة أضرب، ضرب منه حسـن لفظه وجاد معناه کقول القائل: یُغضی حیاءً ... البیت أعلاه، لم یقل فی الهیبة شیئ أحسن منه (ابن قتیبة ،١٩٠٢: ٧)، ویری ابن قتیبة ایضاً فی قول جریر:

لــولا الحیــاء لعــادنی اســتعبارُ ولــزرتُ قبــرک والحبیــب یُــزار

إنّه من جید شعرهِ وهو فی مرثیة أم حرزة امرأته (المصدر السابق: ٣٠٨). قیل ان أهجی بیت مع التصوّن عن الفحش قول جریر:

فغُــضَّ الطــرف إنّــک مــن نُمیــر فــلا کعبــاً بلغــتَ ولا کلابــا

(شیخو، لویس، ١٩٩٨م، ج١٥٧:٢)

ثم لننظر إلی ابن أبی الحدید لنراه کیف سطّر آیات الجمال مازجاً الخوف بالحیاء فی أجمـل صورة من البیان حیث یقول:

یصــفرُّ وجهــی حــین أنظــرُ وجهــه خوفــاً فیدرکــه الحیــاء فیخجــلُ

(الصالح، صالح علی، ١٩٧٢م: ١٤٩)

وهکذا الأمر بالنسبة للشعراء المعاصرین منهم حافظ ابراهیم یمدح الشیخ محمد عبده قائلاً:

رأیتُــک والأبصــارحولک خُشّــعٌ فقلت أبو حفـص ببردیـک أم علـی

(الهاشمی، أحمد، بلاتا، ج٢٥٥:٢)

وکذلک یقول الأدیب المشهور أحمد شوقی:

إخلع النعل واخفض الطرف واخشـع لا تُحـاول مـن آیـة الـدهر غمضـا

(المصدر السابق، ج٢٤٤:٢)

٩. القلوب والعيون

قال الامام علی(ع) :القلب مصحف البصر، (الصالح صبیحی، ١٩٦٧م: ٧٢٦) فما یراه البصر والعین تسجّله القلوب والأفکار، وتُخزنُ الأسرار فیها لوقت الحاجة، بناءًعلی هذا ما لا تُدرکه العیون یغیب عن القلوب، کما یُشیر الی هذا المعنی البیت التالی:

ومن غاب عن العین فقد غاب عن القلوب

(ابو نواس، الحسن‌ابن هانی،١٩٨٠م: ٢١)

وبما أنّ القلوب سجلّ الحوادث والتواریخ، فالعبد یطلب من ربّه أن یحفظ عینیه من الخیانة وأن یطهّر قلبه من النفاق کما جاء فی هذا الدعاء: اللهمّ طهّر قلبی من النفاق، وعملی من الریاء، ولسانی من الکذب، وعینی من الخیانة، فإنّک تعلم خائنة الأعین وما تُخفی الصدور(القمی عباس، ١٣٨٥: ٣٩٧). و من جانب آخر احیاناً العین والقلب یشترکان أحیاناً فی حصاد الذنوب ، کما یعترف دعبل الخزاعی فی البیت التالی:

لاتأخذا بظلامتی أحدا قلبی وطرفی فی دمی اشترکا

(شیخو، لویس، ١٩٩٨م، ج٣:٧٧)

وأیضاً یری أبوالعتاهیة نفس الرؤیة حیث یقول:

خانکَ الطرفُ الطموحُ ایّها القلب الجموحُ

(الاسکندری، أحمد، ١٩٥١م، ج٣:٣٧)

وهکذا یری أبونواس فی قوله:

أنّ القلوب مع العیون اذا جنت جاءت بلیّتها‌علی الإجساد

(ابونواس، الحسن‌ابن هانی،١٩٨٠م: ٥٥)

وکذلک یقول سوید بن کاهل الیشکری:

أرّق العین خیالٌ لم یدع من سُلیمی ففؤادی منتزعْ

(شیخو، لویس، ١٩٩٨م، ج٢:١٧٦)

هذا ویری بعض الأدباء أنّ القلب یسمع ویری کما أشار الإمام علی(ع) فی وصف المتقین حیث یقول: «واذا مرّوا بآیة فیها تخویف أصغوا الیها مسامع قلوبهم، وظنّوا انّ زفیرجهنم وشهیقها فی أصول آذانهم» (الصالح صبحی،١٩٦٧م:٣٠٤)، فللقلوب آذان تسمع وعیون تری، وجاء هذا المعنی علی لسان بشاربن برد:

فقلت دعوا قلبی وما اختار وارتضی فبالقلب لا بالعین یُبصر ذو الحبّ
فما تُبصرُ العینان فی موضع الهوی ولاتسمع الأذنان إلّا من القلب

(شیخو، لویس، ۱۹۹۸، ج۳:۱۹)

فقلوب ذوی الألباب تری وتسمع وتختار، وهذا هو الحبّ الحقیقی ، إذا إنبعث من القلب لامن العین واللسان، وإلی هذا المعنی أشار أبونواس قائلاً:

إذا أبصرت عین قلبی لحینه المتقارب
ضبیاً یمیل التهابی علیه من کل جانب

(ابونواس، الحسن بن هانی،۱۹۸۰م:۲۸)

ویری ابن الرومی انّ النظرات تعدّ رسائل الی القلوب کما جاء فی هذا البیت:

لحظات أجفان الحبیب رُسل القلوب الی القلوب

(شیخو، لویس، ۱۹۹۸م، ج۳:۱۳٦)

وتلام العینُ أحیاناً دون القلب کما یری أبونواس فی هذا البیت:

عینی !ألومک لا الو مُ القلب ،لا ذنبٌ لقلبی
أنت التی قد سمته ببلیّة و ضناً و کرب
وسقیتِهِ من دمعک ال سفّاک سکباً بعد سکب

(أبونواس، الحسن بن هانی،۱۹۸۰م:۲۵)

والی هذه المعانی نجد مفاهیم اخری ذُکرت للعین من قِبَلِ الشعراء، وعلی رأسهم المتنبی الذی یری انّ العیون ملکة القلوب، فی کلامه هذا:

مطاعة اللحظ فی الألحاظ مالکة لمقلتیها عظیم المُلک فی المقل

(البرقوقی، عبدالرحمن، بلا تا، ج۳:۱۰۲)

وقیل: بین الحقّ والباطل أربعة أصابع، فما تراه العین حقّ وما تسمعه الأذن باطل، ویشیرالمتنبی الی هذا المعنی قائلاً:

خُذ ما تراه ودع شیئاً سمعت به فی طلعة البدر ما یُغنیک عن زُحل

(المصدر السابق، ج۳:۲۰۵)

ویری الشریف الرضی انّ الید وان کانت مظهراً للقوة ولکنّها لا تبلغ المنی کالعین، انظر الی کلامه فی هذا البیت:

ويــا ربّمــا، والهــوى ضــلّة تــرى العــين مــا لا تنــال اليــد

(الشريف الرضى، محمدبن‌الطاهر،١٤٠٨ق، ج١:٣٩٣)

ويرى المراربن منقذ وآخرون انّ الإعجاب يتمّ بواسطة العين كما جاء فى هذا البيت:

راقــهُ منهــا بيــاضٌ ناصــعٌ يُؤنــقُ العــين وفــرعٌ مُســبكر

مسبكر: منبسط مسترسل.

(الخطيب التبريزى، يحيى، ١٩٨٧م، ج١: ٤٢٨)

و يرى الصنوبرى أنّه يمكن معرفة المرض من العيون كما فى البيت التالى:

إنِّ ورد الخــدود أحســن مــن عــين بهــا صُــفرة مــن يرقــان

(شيخو، محمدبن‌الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج٣: ٢٢٣)

واخيراً يمكن للعين ان ترى الكثير قليلاً كما جاء فــى القــرآن الكــريم: ﴿وَ إِذْ يُرِيكُمُــوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فى أَعْيُنِكُمْ قَليلاً﴾ (الانفال/٤٤). وكذلک جاء فى ديوان الحماسة لأبى تمام قوله:

و يصغر فى عينى تــلادى إذا اثنتــت يمينــى بــادراک الــذى كنــت طالــب

(الأعلم الشنتمرى، ١٩٩٢، ج١: ١١٣)

ويرى المتنبى هذا الرأى حينما يمدح سيف الدولة قائلاً:

وتعظــم فــى عــين الصــغير صــغارها وتصــغر فــى عــين العظــيم العظــائم

(البرقوقى، بلاتا، ج ٤: ٩٤)

وفى هذا المضمار يقول الناشئ الصغير:

لم يشهد المسلمون قــطُ رحــى حرب الفوا سواه قطــب رحــى

(الأمينى ،عبدالحسين، ١٩٦٧ ج ٤: ٢٤)

وأنــت الخليفــة يــوم انتجــاک على الكور حيناً وقــد عاينوكــا

أذا شــاهدوا الــنصّ قــالوا لنــا توانى عن الحــقّ واستضــعفوكا

(الأمينى، المصدر السابق، ج٤:٢٥)

١٠. انواع الرؤيا

الرؤيا امّا إيجابية مثل الرمق، واللحظ، واللمح، والرشق، والنظر ، والمشاهدة، و ... وإمّا سلبية مثل عمش، وعشو، وحول، وعور، وعمى و ... قد تطرق الشعراء اليهــا فــى قصــائدهم، مــنهم دعبــل الخزاعى الذى يقول:

ألم تر أنّـى مـن ثلاثـين حجـة أروحُ وأغـدو دائـم الحسـرات

(شيخو، لويس،١٩٩٨م، ج٣:٦٩)

فالرؤيا هنا النظر بالعين المجردة، وبهذه الرؤية يتمّ النظر الى المحاسن كما يقول امرؤ القيس:

ورُحنـا، يكـاد الطـرف يقصـر دونـه متـى مـا تـرقّ العـين فيـه تسـفل

(المصدر السابق :ج٢: ٥)

حيث يصف محاسن فرسه وقت العشىّ، وانّ النظر لا يسعه أن يرى محاسن أعالى جسمه، بل يجد المحاسن فى أسافله، فلا يمكن حصر النظر فى شيئ واحد من محاسنه. وهكذا يشعر بشـار برؤية الحسناء فى قوله:

يـا منظـراً حسـناً رأيتـه مـن وجـه جاريـة فديتـه

(المصدرالسابق، ج٣: ٢٢)

وإذا كان الإنسان ذانية خالصة سيرى الجمال فى كلّ شيئ كما يقول أبونواس:

رأيـتُ فيـک ظبـاءً لا قـرون لهـا يلعـبن منّـا بألبـاب وأرواح

(أبونواس، الحسن بن هانى،١٩٨٠م: ٤٧)

واحياناً يستعمل الشعراء الترائى للتظاهر كما فى هذا البيت لبشّار:

قامـت تـراءى إذ رأتنـى وحـدى كالشـمس تحـت الزبـرج المنقـدّ

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣: ١٣)

وتأتى كلمة الرؤيا بمعنى الاعتقاد ، كما هو مفصّل فى علم النحو، فيتعدى إلى مفعولين، فانظر إلى بيت الحماسة التالى:

يرى أنّ بعـد العُسـر يسـراً ولايـرى إذا كـان عسـرٌ أنّـه الـدهرَ لازبُ

(الاعلم الشنتمرى، يونس‌بن سليمان،١٩٩٢م، ج٢:١١٧)

واستخدم أبوالعتاهية الرؤيا بمعنى الاعتقاد فى البيت التالى:

مـا أرى حبّـک الّـا بالغـاً بـى فـوق حـدّه

(شيخو، لويس،١٩٩٨م، ج٢: ٣٦)

وهكذا قال دعبل الخزاعى فى قصيدته التائية المشهورة:

أرى فيئهم فى غيرهم متقسّـماً وأيـديهُم مـن فيـئهم صـفرات

(المصدر السابق، ج٣: ٦٩)

١١. الزجر بالعين

يقرأ الانسان من خلال النظر الى العيون ما لا يقرأه فى اى مصحف، من الخوف والفرح والحزن والغضب والزجر، كما يقول أبونواس:

وإنّى لطرف العين بالعين زاجرٌ فقد كدتُ لا يخفى علىّ ضمير

(المصدر السابق، ج٣:٤٩)

واما الغضب فى العيون فيقول عنه الدينورى:

مدمدمٌ لا أراه إلاّ مقطّبَ الوجه ما رآنى

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج٢: ١٣)

وهكذا يرى أبو العلاء المعرّى فى بيته التالى:

يسرع اللمح فى إحمرار كما تُسرع فى اللمح مقلة الغضبان.

(المصدر السابق، ج٢:٧٦)

١٢. النوم والعيون

جعل الله النوم ليلاً راحةً للأبدان وانقطاعاًعن الأعمال طوال النهار، حيث يقول سبحانه: (وَ هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً). (الفرقان/٤٧)

وللنوم مراتب اوّله النعاس ويتلوه الوسن ثم الكرى ثم الاغفاء ثم الرقاد ثم الهجود وأخيراً التسبيخ وهوأشدّ النوم. وما بينها مراتب اخرى. يقول دعبل الخزاعى:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدُ ولا عزاءٌ إذا أهل البلى رقدوا

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢: ٧٢)

وعندما يستولى النوم على الانسان تأتيه الاحلام الصادقة و الكاذبة والمزعجة والمريبة كما أ شار الله تعالى اليها، فمن الرؤيا الصادقة قوله عزّوجلّ عن لسان إبراهيم (ع): (يا بُنَيَّ إِنِّى أَرى فِى الْمَنامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى) (الصافات/١٠٢)، فما مضت سويعات حتى تأوّل هذا الحلم حيث يقول سبحانه: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنينَ). (الصافات/١٠٥) ومنها أضغاث أحلام لايمكن الركون اليها . ومن جهة ثانية كثيراً ما تنزل البلايا والمصائب التى تفتك بالانسان ليلاً وعند النوم خاصة، كما يقول تعالى: (فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ) (القلم/١٩)، و الحديث طويل فى هذا الباب لا تسعه هذه المقالة. ولننظر إلى موقف الشعراء من النوم، فهذا أبو العلاء يتصوّره إنساناً هارباً عن الأجفان و الأفئدة فى قوله:

هرب النـوم عـن جفـونى فيهـا هرب الأمـن عـن فـؤاد الجبـان

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج١٣: ٦٧)

وصاحب المصيبة يغادر النوم عينيه، فانظر كيف يصوّره بشّار فيما يلى:

كـأنّ جفونـه سُـملت بشـوک فلـيس لنومـه فيهـا قـرار

جفت عينيى عن التغميض حتى كـأنّ جفونهـا عنهـا قصـار

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢: ٢٣)

ويرى تأبط شراً أنّ العين لو نامت استيقظ القلب حارساً عليها كما جاء فى قوله:

إذا خاط عينيهِ كرى النـوم لـم يـزلْ لـه كـالئٌ مـن قلـب شـيحان

(الاعلم الشنتمرى، يوسفبن سليمان، ١٩٩٢م، ج١: ٢٥٦)

ويقصد نفسه لمّا نامت عيناه كان فؤاده مستيقظاً حارساً عليها وقت النوم، وهذا هو الذكاء بعينه.

١٣. أجزاء العين

للعين أجزاءٌ متعدّدة ذكرها الشعراء، وإنّما نشير هنا الى بعضها التى وقفنا عليها فى هـذه العجالـة، فمنها الجفن الذى هو غطاء العين، حيث يقول الشيخ محمد عبد المطلب:

سلو عنـه عينـاً قـرّح السـهد جفنهـا يُخـطّ عليهـا فـى الظـلام ويسـطّر

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج١: ١٠٣)

ومنها المحجر، وهو ما دارت العين فيه، كما فى قول ابن أبى الحديد:

قسماً بترب نعالـه فمحـاجرى أبـداً بغيـر غبـاره لا تكحـل

(الصالح، صالح على،١٩٧٢م: ١٤٩)

ومنها الحُجاج وهو العظم المشرف على العين، كما هو فى قول أبى نواس التالى:

تُقلـب طرفـاً فـى حُجـاجى مغـارة مـن الـرأس لـم يـدخلْ عليـه ذرور

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣: ٥١)

ومنها الطرْف، وهى ناحية العين أو حركتها، كما جاء فى قول ولى الدين يكن:

كم يُوحى طرفُـک لـى غـزلاً وأنـا فـى شـعرى أُنشـده

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج١: ٩٥)

١٤. مصطلحات العين

اذا اقترنت العين بحرف أو كلمة أصبحت لها معانٍ مختلفة، وهى كثيرة الاستعمال على ألسن الادباء والشعراء، لقد أحصينا منها ما يلى:

فمنها قرّة العين، فهى كناية عن الفرح والسرور، قال تعالى: (وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لى وَ لَکَ) (القصص/٩)، والقرّة امّا مشتقة من القرور، اى برد العين عند السرور، أو من القرار واستقرار العين عند السرور، قال أبونواس:

قــرّةُ عينــى، وبــردُ عيشــى　　بــان، وريحــانتى وطيبــى

(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٢٦)

ومنها طرفة العين اى اطباق الجفون، ومنه قول عمر ابن أبى ربيعة:

ليت حظى كطرفة العين منها　　وكثير منها القليلُ المهنّا

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢: ١٩١)

ومثل قول الحطيئة:

قــومٌ يبيــتُ قريــر العــين جــارُهم　　إذا لــوى بقــوى أطنــابهم طُنُبــا

(المصدر السابق، ج٢: ٤٢)

وانظر الى قول عمر بن أبى ربيعة التالى:

فــإن تصــرّمينى لا ارى الــدهر قــرّة　　لعينــى ولا ألقــى ســروراً ولا ســعدا

(المصدر السابق، ج٢: ١٨٨)

ومنها إنسان العين أى سوادها، كما جاء فى قول شمس الدين محمود الكوفى:

انسانُ عينى مـذ تنـاءت داركـم　　مــا راقــه نظــرٌ إلــى إنســان

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج٢: ١١٢)

وكذلک قول المتنبى التالى:

فجــاءت بنــا انســان عــين زمانــه　　وخلّــت بياضــاً خلفهــا ومآقيــا

(البرقوقى، عبدالرحمن، ج٢: ٤٢٤)

ومنها رأى العين اى اليقين، كما أشار الله سبحانه قائلاً: (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ) (آل عمران/١٣)، وكما قال أبو تمام فى البيت التالى:

لمّا رأى الحرب رأى العين توفِلِسٌ　　والحربُ مشتقة المعنى من الحرَب

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣: ٨٨)

ومنها ما جاء مجروراً بالباء، كقول الحارث بن حلزة اليشكرى التالى:

وبعينيـــک أوقـــدت هنـــدٌ النـــا ر أخيـــراً ،نُلـــوى بهـــا العليـــاء

(الزوزنى، الحسين‌بن احمد، ١٩٩٤م: ١٧٣)

يعنى بمرأى منک. هذا ولقد تفنن أبونواس فى اشعاره بانواع المصطلحات،فقد استعمل مضـرّ اللحظ لناعس الطرف فى قوله:

أنـــا الفـــداءُ لظبّـــى مضـــرّ اللحـــظ رطـــب

(أبو نواس، الحسن بن هانى،١٩٨٠م: ٢٥)

واستعمل ابن الرومى العين واللحظ مجازاً فى قوله:

قـد رمـت ألحاظـهُ كبـدى ســـهام للـــردى صـــيّب

(ديوان إبن‌الرومى: ٣٢)

وله ايضاً:

ورمى طرفُک المكحّـل بالسـح رفـؤادى فصـار رهنـاً لـديک

(المصدر السابق: ١٥)

واما مصطلح بياض العين فهو كناية عن العمى،كما جاء فى القرآن الكريم: (وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) (يوسف/٨٤)، و كما يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى:

كمهـت عينـاه حتـى ابيضّـتا فهـو يلحـى نفسـه لمّـا نـزع

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢: ١٧٩)

والمراد من كمه اى الذى يُولد أعمى، ويلحى اى يلوم، ونزع اى كفّ.

واما مصطلح أولو الابصار فاستخدمه القرآن العظيم لذوى العقول كما جاء فى قولـه تعـالى:(يُقَلِّـبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فى ذلِکَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصارِ) (النور/٤٤)، فأصحاب العقـول يـدركون التغيـرات المحيطة بهم من كلّ جانب، ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربّنا ما خلقتُ هذا باطلاً سبحانک. قال الامام على(ع): فانّى فقأت عين الفتنة(خ/٩٣)، اى قلعتها، هذا وانّ للبحث صلة ليس هذا مقامها.

١٥. عمى العيون

قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصيرُ) (الانعام/٥٠) ،فمن كبرى نعم الله على البشر الرؤية بالعين، ومن يعمل على بصيرة فقد أفاد نفسه، ومن تظاهر بالعمى فقد أضرّ بنفسه، والذين يُعرضون

عن آيات ربّهم فی الحیاة الدنیا هم اشدُّ عمیً یوم القیامة. هذا ویری المتنبی ان أدبه جعل الاعمی بصیراً والأصم سمیعاً کما جاء فی البیت التالی:

أنا الذی نظر الأعمی الی أدبی وأسمعت کلماتی من به صممُ

(البرقوقی، عبدالرحمن، بلاتا، ج٣: ٨٣)

وقیل انّ المعرّی کان إذا قرأ هذا البیت أو سمعه یقول : أنا الاعمی. ویری بشار انّ جلاء العیون امّا بالعلم او بالسیوف کما جاء فی قصیدتین مختلفتین:

اولاک الالی شقّوا العمی عن العین حتی أبصر الحقّ

وما قرع الاقوام مثل مشیّعٍ أریبٍ ولا جلّی العمی مثلُ عالم

(شیخو، لویس، ١٩٩٨م، ج٣: ١٣و١٧)

وبهذه الرؤیة تری لیلی الاخیلیة فی هذا البیت:

بضرب یُبصرُ العُمیان منه وتعشی دُونه الحدقُ البصارُ

(الاعلم الشنتمری، یوسف بن سلیمان،١٩٩٢م، ج١: ٢٢٨)

ویری بشار بن برد إنّ البصر إذا عمی فی الحبّ فإنّ الأذن تبدأ بالعمل نیابة عنه:

فما تبصرُ العینان فی موضع الهوی ولا تسمع الاذنان إلّا من القلب

(شیخو، لویس، ١٩٩٨م، ج٣: ١٩)

١٦. العین والتجسس

العین تکون جاسوساً مجازاً وعلاقتها الجزئیة، وهی امّا ان تکون جاسوساً علی القلب فهی اشدّ وطأً من غیرها ، کما یُشیر البحتری الی ذلک:

إذا العین راحت وهی عینٌ علی الجوی فلیس بسرّما تُسرُّ الاضالع

(الجارم ،علی، ١٩٦٤م: ٦٩)

وهکذا یری الشریف الرضی فی قوله:

لا أتبعُ القلب الی غیرکم عینی لکم عینٌ علی قلبی

(الشریف الرضی، محمدبن‌الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج١: ١٨)

وامّا إن تکون جاسوساً بالمعنی العام کما قال الامام علی (ع) :ثم تفقّدْ أعمالهم وابعث العیون من أهل الصدق والوفاء علیهم (صبحی الصالح، ٤٣٥). وقد جمع أبونواس المعنیین فی قصیدتین مختلفتین:

إن كان يمنعک الزيـارة أعـينٌ فادخـل علـىّ بعلّـة العـوّاد
كأنّ طرفـى عـين علـىّ لهـم فكـلّ طـىّ لـدىّ منشـور

(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٥٥ و٧٨)

ويرى أبو العتاهية أنّ الجاسوس لو كان من النمامين فهو أشدُّ مرارة على الانسان:

من جعـل النمـام عينـاً هلكـا مبلغـک الشـرّ كباغيـه لكـا

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣: ٤٢)

والحديث فى هذا المجال ذوسعةٍ ويستطيبه المخاطب، ولكن المجال لا يسع لذلک.

١٧. العين والحسد

من أشدّ الأمراض النفسية التى يبتلى بها الإنسان هوالحسد، و نستجير بالله من شرّ الحساد وفتنـة العيون والأبصار، ومن حسد الكفّار الذين يقول عنهم العزيز الجبّار: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَـوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة/١٠٩). وقال الإمام علىّ (ع) فـى هذا المضمار: العين حقٌّ، والرقى حقٌّ، والسحرُ حقٌّ،والفألُ حقٌّ،والطيرة ليسـت بحـقّ، والعـدوى ليست بحقّ،(الصالح ،صبحى،١٩٦٧م، ٥٤٦). فلا شک اذا العين حسدت أصابت هدفها ، ودمرت اليابس والاخضر، وأفنت كلّ شيئ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا.

هذا وانّ الادباء خاضوا فى هذا الموضوع وبالغوا فيه، كما نرى ذلک فى قول أبى فراس:

رمتنـى عيـون النـاس حتـى أظنّهـا ستحسدنى فى الحاسـدين الكواكـب

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج٢: ٩٧)

فانّ ابا فراس يرى حتى الكواكب على مابها من علوّ شأن ومقام تحسد الانسان. وكذلک قول مهيار:

كلُّ شيئ حسنٌ، حاشاک ـ فالعين تُصيبه

(شيخو، لويس،١٩٩٨م، ج ٣: ٢٠٨)

واعلم أنّ الحسد يزيل النعم، فانظر الى قول أبى عبد الله محمد القزاز القيروانى حيث يقول:

إذا أمنت قلـوب النـاس خافـت عليـک خفـىّ ألحـاظ العيـون

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج٢:١٦)

وهكذا يعتقد الطرماح حيث يقول:

إذا ما رآنى قطّـع الطـرف دونـه ودونى فِعـلَ العـارف المتجاهـل

(الاعلم الشنتمرى، يوسف بن سليمان،١٩٧٢م، ج١: ٢٨٧)

أی قد عرفنی بشهرة نسبی وفضلی الّا انّه یتجاهل فی معرفتی حسداً لی ورغبة فـی إخفـاء مکانی علی حسبی. و شبّه أبونواس حسد العین بالعقرب فی قوله:

یـا مـن فـی عینیـه عقـرب فکـلّ مـن مـرّ بهـا تضـربُ

(أبو نواس، الحسن بن هانی،١٩٨٠م: ٢٢)

ویری أبو العتاهیة علاجاً من الحسد ان تجعل نقطة فی وجه الحبیب کما جاء فی البیت التالی:

قـد نقطّـت فـی وجههـا نقطـة مخافـة العـین مـن الکحـل

(شیخو، لویس، ١٩٩٨م، ج٣: ٣٣)

١٨. العین إنسان کامل

لو نظرنا الی ما قالته الشعراء فی العیون لوجدناهم یصفونها باکمل انسـان، فـالعیون تـارةً تعشـق واخری ترمی سهماً و تتکلّم وتغضب وتختارو ... فجعلـوا أدقّ الاوصـاف لهـا وکأنّهـا الانسـان الکامل، والان لننظر الی هذه المعانی بشیئ من الدقة. فهذا السریّ الرفاء یری انّ العین تعشق کما جاء فی هذا البیت:

عشقت محاسـنه العیـون فلـو رنـت أبـداً إلیـه لمـا قضـت أوطارَهـا

(المصدر السابق، ج٣: ٢٤٩)

ویری المرار بن المنقذ أنّ العین تغضب لما یقول:

حنِـق قـد وقـدت عینـاه لـی مثلمـا وقّـد عینیـه النمـر

(الخطیب التبریزی، یحیی بن علی،١٩٨٧م، ج٢: ٤٢١)

والمراد من وقدت عیناه لی ای التهبت علیّ غیظاً وغضباً.

والعین أحیاناً تتکلّم کما یصوّرها أبونواس فی هذا البیت:

دمـوعی مزجـت کاسـی ومـا أطهـرت وسواسـی
ولکـن نطقـت عینـی فنمّـت عـن هـوی القاسـی

(أبو نواس، الحسن بن هانی،١٩٨٠م: ٩٢)

وهکذا یری الشریف الرضی فی قوله:

حکت لحاظک ما فی الرئم من ملـح یـوم اللقـاء فکـان الفضـل للحـاکی

(الشریف الرضی، محمدبن‌الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج٢: ١٠٧)

وأحياناً اخرى تختار العين فى وصف الاشياء كما يرى محى الدين بنى قرناص الحموى:

وربّ نهـــر لـــه عيـــون تحـــارُ فـــى وصـــفه العيـــون

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج٢: ١٣)

والعين تعتبر وريثة الحزن كما يصفها الشريف الرضى فى أبياته التالية:

يـــا رســـولَ الله لـــو عـــاينتهم وهـــم مـــا بـــين قتلـــى وســـبا
من رميض يمنـع الظـلّ ومـن عـاطش يُسـقى أنابيـب القنـا
لـرأت عينـاك مـنهم منظـرا للحشى شـجواً وللعـين قـذى

(الشريف الرضى، محمدبن‌الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج١: ٤٤)

ويرى أميرالمؤمنين الإمام على(ع) انّ العين تكذب كما جاء فى قوله: «ليست الرؤية كالمعاينة مع الابصار، فقد تكذب العيون أهلها ، ولا يغشُ العقل من استنصـحه» (صـبحى صـالح : ٥٢٥). ويرى احمد شوقى انّ للعيون ألحان كما للطيور ألحان:

والطير تصدح من خلـف العيـون بهـا وللعيـــون كمـــا للطيـــر ألحـــان

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج١: ١١٢)

ومما يراه أبونواس انّ العين تصطاد كما يقتنص الصياد الفريسة:

فرمـــى بـــالطرف نحـــوى وهـــو بـــالطرف يصـــيد

(أبو نواس، الحسن بن هانى ،١٩٨٠م: ٥٧)

وكذلک يعتقد انّ العين تطمح كما فى قوله:

قـــال لـــه والعـــين طمّاحـــة يلهـــو بـــه، والصـــبر مغلـــوب

(المصدر السابق: ١٩)

ويرى وليّ الدين يكن أنّ العين ترصد الامور فى بيته التالى:

خلّـــان هُمـــا شمســـا فلـــک طرفـــى مـــع طرفـــک يرصـــده

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج١: ٩٥)

واخيراً تتحسّر العين كما تتحسّر النفس، كما جاء فى قول السرىّ الرفاء:

فالعين تحسرُ أن رأت أشـواقها والنفس تنعم ان بلت أخبارهـا

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣ک ٢٩)

وهكذا الظنّ عند محمود سامى البارودى الذى يقول:

ولمّا وقفنا للوداع و اسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن
فكم مهجى من زفرة الوجد فى وكم مقلة من غرزة الدمع فى

(الهاشمى، أحمد، بلاتا، ج٢: ٢٨٩)

ومن المعلوم أنّ الموضوع لا يقف عند هذا الحدّ، بل هو ممتد بامتداد البصر، يحتاج الى دراسة معمقة أكثر والوقوف على جوانب أهمّ وأعظم من هذا الذى قمنا به، وهذه المبادرة ما هى إلّا إشعال نار الحبّ والتحقيق فى قلوب أصحاب الذوق والفنّ السليم.

وفى النهاية أرجو القبول من أصحاب العقول وأهل الفنّ والأدب.

الخاتمة

إنّ ما توصّلنا إليه فى هذا البحث هو أنّ العين هى الدليل للحياة المتكاملة، إذا تمّ إستعمالها بصورة صحيحة، فهى من أكبر مظاهر الجمال، وبها نتعّرف على الجمال، عشقتها الاذواق السليمة من ذوى الشعور المرهفة، ومن جهة اخرى جعل الله سبحانه الحور العين ثمناً لأصحاب اليقين من المؤمنين الذين بذلوا مهجهم للدين وعملوا الصالحات. والبحث ذو سعة، يستحق التحقيق من قبل ارباب العلوم وأصحاب الفنون. وما توفيقى الّا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

المصادر

القرآن الكريم.
الاسكندرى، أحمد، ١٩٥١م، *المنتخب من أدب العرب*، القاهرة، المطبعة الأميرية.
الامينى، عبد الحسين، ١٩٦٧م، *الغدير*، ج٤، بيروت، دار الكتاب العربى.
ابن الفارض، عمر بن أبى الحسن، ١٩٦٢م، *ديوانه*، بيروت، دار صادر.
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، ١٩٠٢م، *الشعروالشعراء*، بيروت، دار صادر.
أبونواس، الحسن بن هانئ، ١٩٨٠م، *ديوانه تحقيق فوزى عطوى*، بيروت، دار صعب.
الاعلم الشنتمرى، يُوسف بن سليمان، ١٩٩٢م، *شرح حماسة ابى تمام، تحقيق على المفضّل حمودان*، بيروت، دار الفكر.
البرقوقى، عبد الرحمن، بلاتا، *شرح ديوان المتنبى*، بيروت، دار الكتاب العربى.
الثعالبى، اسماعيل، بلاتا، *فقه اللغة*، مكة المكرمة، دار الباز.
الجازم، على ومصطفى امين، ١٩٦٩م، *البلاغة الواضحة*، مصر، دار المعارف.
الخطيب التبريزى، يحيى بن على، ١٩٨٧م، *شرح اختيارات المفضّل*، بيروت، دار الكتب العلمية.
الدامغانى، الحسين بن محمد، ١٩٧٠م، قاموس القرآن،*تحقيق عبدالعزيزسيدالاهل*، بيروت، دارالعلم للملايين.
الزوزنى، الحسين بن احمد، ١٩٩٤م، *شرح المعلقات السبع*، سوريا، دار الإرشاد.

الشريف الرضی، محمد بن الطاهر، ١٤٠٦ هـ.ق ، *دیوان*، ایران، وزارة الإرشاد الإسلامی.
شیخو، لویس، ١٩٩٨م، *المجانی الحدیثة*، تحقیق فؤاد البستانی، قم، انتشارات ذوی القربی.
الصالح، صبحی، ١٩٦٧م، *نهج البلاغة*، بیروت، بلاتا.
الصالح، صالح علی، ١٩٧٢م، *الروضة المختارة*، بیروت، مؤسسة الاعلمی.
الطبرسی، الفضل بن الحسن، ١٣٧٩ هـ.ق، *مجمع البیان*، بیروت، دار احیاء التراث العربی.
الطریحی، فخر الدین، بلاتا، *مجمع البحرین*، طهران، کتابفروشی مصطفوی.
عبد الباقی محمدفؤاد، ١٣٦٤ هـ.ق، *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الکریم*، القاهرة، دارالکتب المصریة.
قمی، عباس، ١٣٨٥ش، *مفاتیح الجنان*، تهران، پیام عدالت.
محمدی، محمد،١٩٧٣م، *درس اللغة والأدب*، طهران، منشورات جامعة طهران.
المصطفوی، السید جواد، ١٣٩٥ هـ.ق، *الکاشف*، طهران، دار الکتب الاسلامیة.
الهاشمی، احمد، بلاتا، *جواهر الأدب*، بیروت، مؤسسة المعارف.